الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرة بعنوان

نزعتي القبلية والتمرد في الشعر الجاهلي

طلبة السنة الثالثة LMD السداسي الأول

مقياس:قضايا النص الشعري القديم

إعداد الدكتورة: بن مساهل باية

أستاذ محاضر – ب –

السنة الجامعية:2020/2019

المحاضرة الأولى: النزعة القبلية في الشعر الجاهلي

يشكل البناء الاجتماعي للمجتمع العربي في العصر الجاهلي مدخلا مهما في كشف مغزى الشعر الجاهلي، الذي كان له دور كبير في التعبير عن تطلعات الحياة الجاهلية، وآمالها، حيث القبلية مثّلت المحور الرئيس في هذه الحياة الصحراوية، والبعد الأعمق في وجدان الشاعر الجاهلي باعتبار أن الشعر العربي نشأ قبل الإسلام في الصحراء فاحتضن الشاعر ظروفها الطبيعية القاسية بين الجذب والحرب، والتي رسمت له نظاما اجتماعيا خاصا لا يعترف بالاستقلالية والشخصية الفردية، إذ كانت **العصبية** قانونا تتوارثه أجيال الجاهليين، لما تؤسسه للفرد من شرعية البقاء، وتحمي هويته الثقافية والتاريخية من الاندثار ضمن تحديات البيئة الصحراوية المفتوحة- مفتوحة جغرافيا من جهة ومفتوحة على الحروب والصراعات من جهة أخرى-.

تعدّ العصبية مظهرا لنزعة الانتماء القبلي في الحياة الجاهلية، وهي تستند بدورها إلى الدم والنسب، ووحدة القبيلة في المصير والغاية؛ فالعصبية في لسان العرب، مادة "عصب": هي «النصرة على ذوي القربى، وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة»[1]

ولقد تجلى مسارها في الشعر، إذ غدا الشاعر الجاهلي اللسان المعبر عن حال القبيلة و تطلعاتها محققا بذلك ذاته وطموحاته عبر هذا الانتماء، فلقد أدرك الشاعر العربي قبل الإسلام المكانة التي كان يحوزها بين أفراد قبيلته[*]، وهذا ما حمله على الالتزام فنيا بالتعبير عن قضايا مجتمعه المختلفة، فكان يبث الحماس في أفراد القبيلة وقت الحرب، بل تراه المصالح لذات البين والناصح المرشد في الصراعات والخلافات الداخلية وقت السلم،

---

[1]- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مادة (عصب).

[*]- ذكر النقاد -ابن رشيق والسيوطي مثلا- أن القبيلة إذا نبع فيها شاعر في عصر الجاهلية أتت القبائل هنأتها، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء...، فلم يكن يعدل فرحة القبيلة بالشاعر سوى بغلام يولد أو فرس تنتج، لأنه كان الحامي لأعراضهم، المخلد لآثارهم، الحامل لرسالتهم، وفي مقابل هذه الرسالة التي كان يحملها الشاعر على عاتقه باسم قبيلته، فإن الشاعر يحقق لذاته جملة من المكاسب لعل أبرزها سمو المكانة الشعرية.

فهو لسان قومه في كل زمان ومكان، وفي كل الأحداث والوقائع، حيث يرى **حسين جمعة** أن الانتماء ظاهرة اجتماعية وفكرية ثم فنية، تأصلت لدى الجاهليين في وجوه كثيرة، وهو حس مرتبط بالقبيلة، جعل الجاهلي – في ذاته الفردية– جزءا منصهرا في كيان أكبر يقال له الذات الجماعية، تنتهي حريته عند حدود مصالحتها ووجودها، وبهذا الوعي يصبح المجموع لدى الشاعر المنتمي مساويا للذات؛ لذا كان ملزما بالدفاع عن قبلته وقيمها...[2].

كما يرى **يوسف خليف** أن "العقد الاجتماعي" بين الشاعر والقبيلة تحول إلى "عقد فني" قائلا: «وكانت النتيجة الفنية لهذا العقد الفني أن أصبح الشاعر معبرا عن مشاعر قبيلته ورغباتها واتجاهاتها الشخصية، وأصبح ضمير الجماعة (نحن) أداة التعبير بدلا من ضمير الفرد (أنا)، وأصبحت ألوانه التي يرسم بها لوحاته الفنية مشتقة من قبيلته لا من نفسه، أو بعبارة أخرى (صناديق أصباغه) مستعارة من قبيلته وليست صادرة عن نفسه، ولم تعد (ريشته) التي يلون بها لوحاته مُلكا له، ولكنها أصبحت ملكا لأفراد قبيلته جميعا، فهو يفتخر بقبيلته، فيذكر امتيازها العنصري، وشرف نسبها وحسبها، وأصالة ماضيها، وكرم نجارها ويشيد بمكانتها بين القبائل وحرصها على اجتناب الذام، وتمسكها بالمثل العليا التي يقدسها مجتمعه: المروءة، والنجدة والشجاعة والكرم والفصاحة، وما إلى ذلك"[3].

إذن قد تتحول العصبية القبلية التي تهيمن على الشخصية الفردية إلى نزعة يشعر معها الإنسان بقوة الانتماء الحقيقي، فتذوب الأنا الشاعرة في الأنا الجماعية استجابة للتحدي البيئي والتاريخي.

---

[2]- ينظر الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية، حسين جمعة، مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد63، ص: 81–83.

[3]- دراسات في الشعر الجاهلي، يوسف خليف، مكتبة غريب، القاهرة، (د.ت)، (د.ط)، ص: 174، 175.

يقول **المتلَمَّس الضُّبَعي**[4]:

إِلى كُلِّ قَومٍ سُلَّمٌ يُرتَقَــى بِــهِ وَلَيسَ **إِلَينا** في السَلاليمِ مَطلَــعُ.
وَيَهرُبُ مِنّا كُلُّ وَحشٍ وَيَنتَهي إِلى **وَحشِنا** وَحشُ الفَلاةِ وَيَرتَعُ.

وكذلك من أحسن ما ورد في الفخر القومي (القبلي) ما قاله **طرفة** في هذه الأبيات يفتخر بمناقب قومه، وقد ذكر فيها يوم تحلاق اللمم، أي يوم انتصار بكر على تغلب في حرب البسوس، وفيها كان الحارث بن عباد قد أشار على رجال بكر قبل بدء القتال أن يحلقوا رؤوسهم ليكون ذلك علامة لهم يعرف بها بعضهم بعضا:

سَــائِلُوا عنــا الــذي يَعْرِفُنَــا بقُوانــا يــومَ تَحــلاق اللِّمَــمْ.
يوم تُبدِي البيضُ عن أَسْــوُقِهَا و تَلُــفُّ الخيــلُ أَعْــرَاجَ الــنَّعَمْ
أَجدرُ النــاس بــرأس صِــلْدَمٍ حَازِمِ الأمر شجاعٍ في الــوَغَمْ.[5]

إذا لقد شاعت في الشعر الجاهلي هذه الصورة من الذوبان في الذات القبلية، وتحويل "الأنا" إلى "النحن"، وانصبت فعالية الشعر في هذا الاتجاه بتلقائية مدهشة، فقد مثل **الفخر** أعلى درجات البوح بالنزعة القبلية واتصلت العصبية بتمجيد القوة، قوة القبيلة والفخر بها، وهنا يأتي دور الشاعر في تكثيف مشهد القوة وتنويع **مظاهر** الفخر القبلي والمجد المعنوي لأنه لا يرى وجودا لذاته الشاعرة خارج النزعة القبلية.

- مظاهر النزعة القبلية في الشعر الجاهلي:

---

[4]- ديوان المتلمس الضُبَعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، 1970، ص: 305، 306.

[5]- ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، ص: 90 وما بعدها.

- اللّمم: جمع لمة، وهي الشعر الذي يلم بالنكب، ويلي شحمة الأذن.
- تبدي: تكشف، البيض: النساء الحرائر، تلف: تجمع، أعراج: قطعان الإبل.
- النعم: الإبل وتطلق على البقر والغنم، يقول: يوم تكشف النساء عن سيقانهن، من الفزع استعدادا للهرب.
- صلْدِم: شديد، الوغم: الحرب.

إن الفخر هو نافذة تطل منها على مجموعة من المثل التي كان الجاهليون يعتزون بها ويحرصون عليها، فهذه المثل أو الفضائل تدخل في باب الفخر، حيث نجد أن في كل مجتمع من المجتمعات يتشكل مجموعة من القيم التي يعتز بها أبناؤه، فكلما مر المجتمع بطور من الأطوار تعرضت قيمته أو بعضها للتغير والتقهقر في سلم الأهمية.[6] ولقد اتسعت مجالات الفخر في الشعر الجاهلي اتساعا كبيرا، فهي متعددة ومتنوعة، وأبرزها:

1- الافتخار بالأنساب:

يمثل الشعور بالانتماء إلى القبيلة قبل الإسلام مصدر فخر واعتزاز، وهو الذي يترك صاحبه يزداد حماسة لوطنه الروحي –أي قبيلته–، إذ يولد الإحساس بالانتماء للجد الواحد إحساسا بالتاريخ المشترك والمصير الواحد لكل أفراد القبيلة، وعلى ذلك نجد الشعراء في قصائدهم يحرصون على ذكر الأنساب[*]، محاولين إثباتها وترسيخها في الأذهان من خلال التذكير في كل مرة بأن أصول قبيلتهم أصول كريمة توارثتها جيلا بعد جيل، فهي ضاربة بجذورها في التاريخ، يقول **الزبرقان بن بدر** متغنيا بنسب قبيلته[7]:

فإنْ أكُ من كعب بن ســـعد فـــإنني رضيتُ بهم من حيٍّ صدق وولدِ.

وإن يكُ من كعب بن يشكر منصبي فإن أبَانـــا عـــامر ذو المجاســـدِ.

لقد صار الشعور بالانتماء هاجساً شعريا عند جلّ شعراء العصر الجاهلي، فتراهم يبحثون دوما عن الهوية القبلية التي تبدأ بإثبات رفعة النسب والتغني به، فهذا **الأخنس بن**

---

[6]– ينظر دراسات في الأدب الجاهلي: عبد العزيز نبوي، مطبعة مؤسسة المختار، مصر، ط3، 2006، ص: 135.

[*]– الأنساب: واحد النسب، ويعني القرابة، وهو الرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها، وذلك لأن أفراد القبيلة كلهم يشتركون بنسب واحد، والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية، ينظر لسان العرب، مادة (نسب).

[2]– طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجمحي، قراءة وشرح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974، ص:109.

شهاب التغلبي يذكرنا برفعة نسبه الذي يمتد إلى قبائل تغلب بنت وائل، وما يحمله معه من مظاهر القوة والإقدام، يقول[8]: (الأبيات على غير ترتيب)

وَنَحنُ أُناسٌ لا حِجــازَ بِأَرضِــنا مَعَ الغَيثِ ما نُلقَى وَمَن هُــوَ غالِــبُ
فَوارِسُها مِن تَغلِبَ اِبنَــةَ وائِــلٍ حُمــاةٌ كُمــاةٌ لَــيسَ فيهــا أَشــائِبُ
فَلِلَهِ قَــومٌ مِثــل قَــومي سُــوقَةٌ إِذا اِجتَمَعَت عِندَ المُلوكِ العَصائِبُ.(*)

ولا يكتفي الشعراء بذكر مظاهر القوة والشجاعة التي تتميز بها عشيرتهم، والتي تحمس الشاعر دوما للتغني بها وتجعله يذوب في هذا الكيان القبلي، بل يرسم لوحات فنية مشتقة من الارتباط الشديد الذي يكنه الشاعر لقومه وهذه الصورة نجدها عند **المقنع الكندي** الذي نجده يقول[9]:

وَاِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِــي أَبِــي وبَيْنَ بَنِي عَمِّــي لَمُخْتَلِــفٌ جِــدًّا
إِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَــرْتُ لُحُــومَهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا
وإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تمُرُّ بِهِمْ سَــعْدَا

فالشاعر يزداد وفاء لأفراد قبيلته وفخرا بانتمائه لهم لأنه يدرك أن رسالته اتجاههم تفرض عليه أن يبني لهم صروحا من المجد، حتى وإن عكفوا على تهديم مجده؛ ذلك أن مجده إنما مستمد من مجدهم، وهنا تظهر الرغبة في الحفاظ على الكيان القبلي الذي ينتمي إليه الأفراد وتأوي إليه الرعية، إذن فالشاعر الجاهلي أخذ على عاتقته العبء الأكبر في تحمل آمال قبيلته وآلامها وعَبْر خطابه الشعري تحمل المسؤولية الأخلاقية عنها حسب قيم النزعة القبيلة.

---

[8]–المفضليات: المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط4، (دت)، ص: 206– 207.

[*]– كماة: الشجعان، الأشائب: الأخلاط، السوقة: من سوى الملك، العصائب: الجماعات.

[9]–شرح ديوان الحماسة لأبي تمام: التبريزي، طبعة عالم الكتب، بيروت، ص: 100/3.

2- الافتخار بالكرم:

تأتي فضيلة الكرم على رأس القيم السامية التي طالما تغنى بها الشعراء حتى عدت القيمة الأكثر دورانا في القصائد الجاهلية، فقد عبَّر الشعراء عن الكرم كقيمة أخلاقية قبلية تحكم النظام الاجتماعي لتجعله أكثر تماسكا وتلاحما، قناعة منهم بأنه الممثل الحقيقي لصور التكافل الاجتماعي بين العرب، بل هو سبيل المجد والسيادة، يقول **حاتم الطائي** [10]:

ألم تعلمي أنِي إذا الضيف نابني وعزَّ القِري أقري السديف المُسرْهَدا
يقولون لي: أَهْلَكْتَ مَالكَ فاقتصد وما كنتُ لولا مـــا تقولـــونَ ســـيّدا

كما يوضح الشاعر **عمر بن الأهتم** أن الوصول إلى المجد والسمو لا يكون إلا بالكرم، حيث يجود الكريم بماله عند اشتداد المحن، إذ يقول[11]:

وإنك لن تنال المجـــد حتـــى تجود بما يَضِينُ به الضـــميُر
بنفسك أو بمالك فـــي أمـــورٍ يهاب ركوبها الورعُ الـــدَّثُورُ.

يظهر من خلال هذه الأبيات أن صفة الكرم تسحب معها السيادة والمجد، خاصة وإن كان الكرم والعطاء من خير الزاد وقت الشدة والجذب، فالرغبة في العطاء عند الممدوح تكون في سعيه المتواصل للعطاء بالنفس والمال في كل زمان ومكان، وفي هذه الحالة تُكسب فضيلة الكرم صاحبها خلودا حتى بعد مماته، إذ الكريم يخلد ذكرى عطرة يفوح شذاها على مدى الأيام والدهور، ويبرز الشاعر **حاتم الطائي** هذه القيمة السامية، إذ يرى الكرم فضيلة يتبعها حسن الثناء، والبخل رذيلة يتبعها سوء الثناء قائلا[12]:

إنَّ البخيـــلَ إذا مـــات يتبعـــه سُوءُ الثّناءِ ويحوي الوارِثُ الإبِلاَ.
فاصدقْ حديثكَ إن المرء يتبعهُ ما كان يَبني إذا ما نَعْشُهُ حُمِـــلَ.

---

[10]- ديوان حاتم الطائي، شرح: أحمد رشاد، طبعة لندن، 1982، ص:26.

[11]- المفضليات: المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ص: 410.

[12]- ديوان حاتم الطائي، ص:38.

إذن فإن المدح بالكرم له أثر كبير في نشر فضيلة الجود، والعطاء، وتنمية القيم الاجتماعية السامية في النفوس، حيث أن الشعر بوعيه بمكارم الأخلاق قد استطاع أن يقدم لنا النموذج الإنساني الفاضل فإلتحم الشعر مع التجربة في إطار الرؤية تلاحما جعل منه بنية فنية مؤثرة[13].

3- الافتخار بالشجاعة:

إنَّ فضيلة الشجاعة بما تحمله من دلالات القوة والصبر والمروءة والإقدام من أهم القيم الاجتماعية التي عمل الشعر العربي على نشرها، لكون"مجتمع الجاهليين مجتمعا صحراويا تحكمه شريعة القوة، فالقوي وحده له البقاء والضعيف له الفناء، فهو الذي يستطيع حماية ماله وعرضه، والدفاع عما يملك، إذ القوة هي التي تحمي، ولا قوة تجدي إلا بالشجاعة، أضف إلى ذلك أن المجتمع الجاهلي لم يعرف الوحدة أو الحكومة الواحدة التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات..."[14]

لقد قدم لنا الشعراء نماذج حية لفضيلة الشجاعة تتجسد فيها أسمى معاني الفخر القبلي الممزوج بالحماسة والإقدام، وينقل لنا **عنترة بن شداد** مشهدا بطوليا رائعا بقوله[15]:

أَحِنُّ إِلى ضَربِ السُيوفِ القَواضِبِ وَأَصبو إِلى طَعنِ الرِماحِ اللَواعِـــبِ
وَأَشتاقُ كاساتِ المَنونِ إِذا صَـــفَتْ وَدارَتْ عَلى رَأسي سِهامُ المَصائِبِ

في هذه الأبيات تظهر شجاعة عنترة وفروسيته، فهو لا يخوض غمار المعركة فقط، بل يحن ويشتاق إلى ضرب السيوف واشتباك الرماح إذا ما دارت المعركة وارتفع سواد النقع، فشعر عنترة يبعث الحماسة في نفوس الأبطال، ويستنهض الهمم لدى الشجعان

---

[13] – ينظر المواقف الإنسانية في الشعر الجاهلي (الالتزام، الاغتراب، التمرد): حسني عبد الجليل يوسف، دار الوفاء، ط1، 2008، ص: 50.

[14]– ديوان: عنترة بن شداد: شرح: سيف الدين الكاتب وأحمد عصام، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1981، ص: 24.

[15]– دراسات في الأدب الجاهلي: عبد العزيز نبوي، ص: 136.

كما يقرّ الشاعر **قيس بن الخطيم**، بأن استجابة قومه إلى نداء الواجب يفرضه الانتماء القبلي الذي يلزم كل فرد بضرورة التضحية حفاظا على ذلك الكيان (القبيلة)، وينقل لنا بطولة جماعية خلدَّت لقومه أياما مشهورة في البسالة والبطولة قائلا[16]:

رجال متى ما يُدعوا إلى الموت يُرقِلُوا إليه كإرقـــال الجمـــال المصـــاعب
إذا فزعوا مدُّوا إلـــى الليـــل صـــارخاً كموجِ الأُتـــيِّ المزبَـــدِ المتراكـــب
ولما هبطنـــا الحـــرثَ قـــال أميرنـــا حرامٌ علينا الخمرَ ما لـــم نُضَـــاربِ
فســـــامحه منَّـــــا رجـــــال أعـــــزَّةٌ فما بَرَحُوا حتـــى أُحِلّـــت لشـــاربِ

وهنا تظهر تبرز الشجاعة تجسيما للوعي الجماعي، بحيث تتقدم المصلحة العليا للقبيلة على مصالح الفرد الذي يفقد استقلاله الذاتي في سبيل الوجود الجماعي لأفراد القبيلة، تأمل كيف تُحضَر الخمر باعتبارها خصوصية فردية ثم يمنع أفراد القبيلة من شربها تحريما حتى تسترد القبيلة المفقودة، وبذلك تحجب اللذة الفردية مؤقتا في سبيل الوصول إلى اللذة الجماعية التي لن تتحقق إلا عن طريق الأخذ بالثأر ورفع قيمة القبيلة من جديد.

4- الافتخار بالوفاء:

إن الحياة في البادية حياة فطرة وصفاء، وإباء وشرف، لذا برز الوفاء كواحد من الفضائل السامية التي لا يتحلى بها إلا كل ذي نفس عالية، وهمة رفيعة فألحقها الشعراء بقبائلهم على سبيل الفخر وصناعة المجد، يقول أحد الباحثين: «فالبدوي كان يتغنى بترفعه عن العار وبعده عن الفحشاء، وبتواضعه، وحيائه وعفوه عند المقدرة، ويتغنى بشجاعته وصلابته في طلب الثأر، ولما كانت الحياة لا تعرف الاستقرار، بل كانت سلسلة من التنقل والارتحال كان **الوعد الصادق** سُنة المجتمع، وكان **الوفاء** من أقدس القدسيات والعذر من أقبح الأمور، لذلك كان الوفاء بابا واسعا من أبواب الفخر لديهم»[17].

---

[16]– ديوان قيس إبن الخطيم، تحقيق: ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني، القاهرة، 1962، ص: 84–86.

[17]– أروع ما قبل في الفخر والحماسة: إميل ناصيف، دار الجيل، بيروت، ط1، (د.ت)، ص: 17.

وفي ذلك يقول **الأعشى:**

وإن أمرؤ أسدى إليك أمانة فأوفِ بها، إن متى سميت وافيا

مما تقدم يمكن القول بأن النزعة القبيلة ظهرت بوضوح في الشعر العربي قبل الإسلام، فلقد أخذ الشاعر على عاتقه العبء الأكبر في تحمل آمال قبيلته وآلامها، وعبر الكلمة/ الشعر تحمل المسؤولية في السلم والحرب، محاولا ملء شقوق الحياة الجاهلية التي أحدثها الجذب والحرب، لذا تجلت الذات الشاعرة كفادية لروح الجماعة وحاضنة لها.

المحاضرة الثانية: نزعة التمرد في شعر الصعاليك

1- المفهوم ودوافع التمرد:

بعد أن وقفنا على مظاهر النزعة القبلية في الشعر العربي قبل الإسلام سنحاول في هذه المحاضرة أن نبرز صوتاً معارضاً ومخالفا لصوت القبيلة، ونقف عند تيار شعري آخر مثّل ثورة الهامش (الصعاليك) على المركز (القبيلة)، ونعني به شعر الصعاليك الذي برز كتيار معاكس رافض للواقع القائم، معتّدٍ بالشخصية الفردية إلى درجة التحدي والتمرد والثورة، يقول يوسف خليف: «وأما الطائفة الأخرى التي بالغت في فهم الشخصية الفردية فهي طائفة الشعراء الصعاليك وهم أولئك المتمردون على النظام القبلي، الكافرون بالعصبية القبلية، المؤمنون بعصبية أخرى شعارها الغزو والإغارة والنهب»[18].

فالحاجة ماسة إلى نفض الغبار عن هذا الخطاب الشعري المتميز، لإنصافه وتجنب اعتبار أصحابه لصوصا، ناهبين سالبين أموال غيرهم، وللكشف عن دوافع الإقصاء الممارس على فئات مقهورة، مهضومة حقوقها، مظلومة حتى في عصرنا.

حيث أن كلمة (الصعلكة) أخذت بالتخصّص لتدل على سلوك معين لشخص من أهم صفاته الفقر، وقد أدرك اللغويون الدلالة الاصطلاحية للكلمة فهم يذكرون أن صعاليك العرب هم "ذؤبانها" وذؤبان العرب هم الصعاليك الذين يتلصصون[19]، بل وقد درجوا على ذكر عروة بن الورد بـ(عروة الصعاليك) في مادة (صعلك).

وفي شعر الصعاليك أنفسهم إشارات إلى أنها كانت معروفة كاصطلاح على ظاهرة اجتماعية محددة، فقد استعمل بعض الشعراء كلمة الصعاليك في شعره، قال **السُّليك بن السلكة**[20]:

فلا تصلي بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعدّ من العيال

---

[18] – دراسات في الأدب الجاهلي، يوسف خليف، ص: 187.

[19] – ينظر القاموس المحيط: الفيروز آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، مادة (ذ أ ب).

[20] – السليك بن السلكة: شرح وتقديم: سعد الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994، ص:16.

ولكن كلّ صعلوكٍ ضروب بنصل السّيف هامات الرجال

ومثله قول **عروة بن الورد**[21]:

لحي اللَّهُ صُعلوكاً إذا جنّ ليلُهُ مضى في المشاشِ آلفاً كلَّ مجزرِ

ولكنَّ صعلوكاً صفيحة ُ وجههِ كضَوءِ شِهابِ القــابس المتنــوِّر

كما ورد في معجم لسان العرب بأن الصعلوك هو «الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري ولا إعتماد»[22]، فالصعلكة وإن كانت تعني الفقر، إلا أنه قد يكون ماديا أو معنويا، حيث توحي لفظة "الاعتماد" إلى حاجة الأفراد جميعهم للمؤازرة والمساندة، ولن تتحقق تلك الحاجة عندهم في حياتهم الاجتماعية إلا بشرف نسبهم، وتكون لفظة الاعتماد إشارة إلى الحسب والنسب الذي يعتمد عليه الجاهلي في عصبيته، ومن لم يتوفر له ذلك بات مفتقدا كل مقومات الحياة[23]، وقد تناول الصعاليك هذه الفكرة في أشعارهم، ويقول **عروة بن الورد**[24]:

ما بي مــن عــار إخــال علمتُــه سوى أنَّ أخوالي إذا نســبوا نهــد

إذا ما أردت المجد قصّر مجــدهم فأعيا علــيَّ أن يفــارقني المجــد

فيا ليتهم لم يضربوا فــيَّ ضــربة وأنيَ عبْــدٌ فــيهم وأبــي عبــدُ

ثعالب في الحرب العوان فإن تــنجُ وتَنفرِجِ الجُلّــى ، فــإنّهمُ الأُســدُ

تظهر في هذا الأبيات أن ليس لعروة بن الورد ما يفتخر به، بعد أن لحقه الضرر والعار من أخواله الأسود في السلم، الثعالب في الحرب، والشجاعة الحربية من الصفات المثالية المحصورة عند السادة. ولهذا لم يتأهل الصعاليك- بحكم انتمائهم العرقي-

---

[21]- ديوان عروة بن الورد، إعداد وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ط1، 1996، ص: 70- 74.

[22]- لسان العرب، لإبن منظور: مادة (صعلك)، دار صادر، بيروت، ط3، 1994 ص: 455/10.

[23]- ينظر عودة إلى الخطاب الشعري لدى صعاليك ما قبل الإسلام، محمد الصادق بروان، مجلة الخطاب، العدد 13، منشورات مخبر تحليل الخطاب،جامعة مولود معمري- تيز وزو. جانفي 2013، ص: 165.

[24]- ديوان عروة بن الورد، ص: 45.

لاحتلال المراتب العليا حيث الثروة والسادة، ف «وجدوا أنفسهم في الموضع المهين من المجتمع، ولم تقبل نفوسهم بحكم طبيعتها وتكوينها هذا الوضع، ولم يكن أمامهم لتفادي هذا الهون إلا الاعتماد على أشخاصهم في قوتها وعنفها، أيا كان مظهر القوة، وأيا كان مظهر العنف»[25].

فأساس حركة الصعاليك اعتداد بالشخصية الفردية، بل مبالغة في هذا الاعتداد، وتحلل من الشخصية القبلية يصل إلى درجة التحدي والتمرد والثورة، فالصعاليك كما عرفهم يوسف خليف جماعات من فقراء القبائل الأقوياء ضاقت بهم سبل العيش في ظلال قبائلهم لاختلال الأوضاع الاقتصادية بها، فانطلقوا إلى الصحراء الفسيحة يشقون طريقهم في الحياة بقوتهم ينهبون ويسلبون، وانضمت إليهم جماعات من خلعاء القبائل الذين نبذتهم قبائلهم وطردتهم من حماها مثل: **حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القيني،** وجماعات أخرى من الأغربة السود أولاد الإماء الذين نبذتهم أبائهم **كالسُليك بن سلكة، وتأبطا شرا والشنفرى.** فالصعلوك واحد في أصله هو الفقير إلى النسب والثروة، وبتبنيه الفروسية يكسب الرزق ويخترق حاجز العبودية، وهو ما عبر عنه عروة بن الورد بصيغة التعجب السماعية "لله صعلوك" فهو في مقام المدح والإعجاب والإكبار طالما يسعى لانتزاع حريته على عكس من يختار درب القبيلة والذي يستحق الذم والاحتقار لذا خصّه **عروة بن الورد** في قصيدته بالفعل "لحي" فهو، ملعون وملوم، مفعول به لا فاعل، يقول الشاعر[26]:

فقلتُ له: ألا أُحَيَّ، وأنتَ حُرٌّ ستشبعُ في حياتِكَ أو تموت

وفي البيت انطلاقه: فكرية رائعة من زعيم الصعاليك في رسم الخطة التي ينبغي أن يسير عليها الصعاليك إما حياة كريمة، وإما موت جميل لأن الموت أفضل من حياة الذل والفقر، والامتهان الاجتماعي، الذي وصل إليه حال الصعاليك.

---

[25]– شعر الصعاليك منهجه وخصائصه: عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص: 198.

[26]– ديوان عروة بن الورد، ص:34.

إذن فالدافع الاجتماعي والاقتصادي يبرز كأهم محفز على التمرد عند الشعراء الصعاليك ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يحتكمون لنظام سيد العشيرة القائم على الطبقية الاجتماعية وعدم التوازن في توزيع الثروات والتي عانى منها الفقراء إلى حد كبير حتى ثار الصعاليك على قانون القبيلة وحملوا السيف لإعادة التوازن الاجتماعي إلى حياة مجتمع إختلت موازينه ومقاييسه.

فبالرجوع إلى أخبار الصعاليك، نجد أن الفقر صفة بارزة ومميزة لديهم، فكل الصعاليك كانوا فقراء حتى **عروة بن الورد** سيد الصعاليك وزعيهم، ولذلك نجد في شعره كثيرا من وصف حالة الفقر وما يتكبده في سبيل الغنى من مخاطر ملخصا الظروف التي دفعته وأصحابه للخروج عن قبائلهم[27]:

أقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا بنَـــت مُنْـــذِرٍ ... ونامِي وإنْ لم تَشْتَهي النومَ فاسْهَرِي
ذَرِيني ونَفسي أُمَّ حَسَّـــانَ إننـــي ... بها قبل أن لا أملك البيعَ مشـــتري
ذرِيني أطوِف فِي البلادِ لعلَّنِـــي ... أخليك أو أُغْنِيكِ عن سُوءِ مَحْضري
فإن فاز سهم للمنيـــة لـــم أكـــن ... جَزُوعاً، وهَلْ عن ذاكِ من مُتَـــأخَّرِ

وفي الحقيقة لقد كان الفقر وشدة الجوع والواقع المأساوي الذي فرضته ظروف البيئة الطبيعة وقسوة النظام الاجتماعي من الأسباب الرئيسية التي أثارت هذه الفئة من الناس، وجعلتهم يسلكون أسلوب القوة والتمرد، ويثورون على واقعهم الاجتماعي مبتعدين عن الحياة وما فيها من أعراف ظالمة، والمتأمل في شعر الصعاليك يجده متوقدا بصرخات اللانتماء التي كان الشعراء يطلقونها في جل أشعارهم، وما صرخة **الشنفرى** في مطلع لاميته إلا دليلا على ذلك، يقول مفضلا الحياة مع الوحوش الضاربة على العيش وسط مجتمع ظالم جائر متعسف[28]:

---

[27] – الديوان: عروة بن الورد، ص: 144.

[28] – ديوان الشنفرى: الشنفرى، جمعه وحققه: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1996، ص: 58.

القِلى: البغض والعداوة، حَمَّتْ: تهيأت.

أقيموا بني أمي، صدورَ مَطِّيكم فإني إلى قومٍ سِواكم لأميلُ
فقد حُمَّتْ الحاجاتُ ، والليلُ مقمــرُ وشُدَّتْ لِطياتٍ مطايا وأرحَلُ
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى مُتَعزَّلُ

فالظاهرة المهمة والتي تلفت النظر في حياة الصعاليك الاجتماعية هي تعاظم شعور اللانتماء وفقد الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي وتطورها في نفوسهم إلى عصبية فئوية، وذلك لأن الخلعاء قد تخلت عنهم قبائلهم وسحبت منهم الجنسية القبلية، وأنَّ الأغربة قد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، إذن لم يكن هناك ما يوجب حرصهم على العصبية القبلية[29]، وقد انعكست هذه الناحية بموضوعاتها في شعرهم. وانعكس ذلك على حياتهم فكانت حياة صراع؛ صراع مع الفقر والشعور بالمهانة والضياع، وصراع مع الصعلكة نفسها وما يتعرضون له خلال ذلك من مخاطر ومشقات وصراع مع الأعداء... حتى أنه يمكن أن نسمى شعرهم "شعر الصراع" كما أطلق عليه بعض الباحثين، حيث « يمكن إجمال موضوعات الصراع التي طرقها شعرهم في ثلاثة موضوعات رئيسية أولها الأسباب التي من شأنها أن تدفعهم للصعلكة كالفقر وآثاره، والشعور بالهوان في المجتمع والضياع فيه، وثانيها حياة الصعلكة نفسها وبيئتها وأساليبهم في مزاولتها، وما يتعرضون له خلال ذلك، وما يعدونه من أسلحة لها وما إلى ذلك وثالثها الآثار التي تجرها عليهم الصعلكة كالأعداء...»[30].

[29]– ينظر دراسات في الشعر الجاهلي: يوسف خليف، ص: 187.

[30] – شعر الصعاليك منهجه وخصائصه: عبد الحليم حفني، ص:183.

إذن فشعر الصعاليك من ناحية البناء الموضوعاتي متشعب بين وصف أحاديث الفرار، والمغامرة والتوعد والتهديد، وشعر المَرَاقِبْ[31]، ووصف الأسلحة، والفقر وآثاره، وصراع الهوان في المجتمع...

2- الظواهر الفنية في شعر الصعاليك و مظاهر التمرّد:

يمتاز النص الشعري الصعلوكي بعدّة خصائص وظواهر فنية هي مظاهر التمرّد على الشعر القبلي، يقول **يوسف خليف:** «ومن الطبيعي، ما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وقبائلهم قد انقطعت اجتماعيا- أن تنقطع فنيا أيضا- وأن يصبح ذلك "العقد الفني" الذي رأيناه بين شعراء القبائل وقبائلهم لا موضع له، ولا يصبح الشاعر الصعلوك لسان عشيرته لأن عشيرته لم يعد لها وجود في نفسه، ولا يصبح شعره صحيفة لها لأن ما بينه وبينها قد انقطع، وإنما يصبح شعره لسان شخصيته الفردية، وصحيفة أحواله الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره»[32].

إذن فقد تركت الدوافع سابقة الذكر أثرها في إبداع خطابهم الشعري، فتجلت مظاهر التمرد في شعرهم فكرياً وفنياً؛ أي من ناحية الموضوعات، ومن ناحية البناء الفني لقصائدهم، ولعل أبرز مظاهر التمايز بين شعر الصعاليك وشعر القبلية يتجلى في أول خاصية مميزة لشعرهم، وهي:

أ- وحدة الموضوع والتخلص من المقدمات الطللية:

---

[31]- المَرَاقِبْ: المرتفعات العالية التي يشرفون منها على الطريق يتربصون بأعدائهم، ويترصدون ضحاياهم لتحيُّن الفرصة المناسبة للهجوم عليهم، يقول الشنفرى في وصفه مرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر، خاصة مع الليل الذي هو أحصن للتخفي والهرب:

وَمَرقَبَةٍ عَنقاء يَقصرُ دونَهـــا أَخو الضَروة الرَجلُ الحفِيُّ المُخَفّفُ

نعيتُ إِلى أعلى دارها وَقَد دَنا مِـــنَ اللَيلِ ملتـــفّ الحَدِيقَةِ أَسدَفُ

[32]- دراسات في الشعر الجاهلي: يوسف خليف، ص: 188

تتجلى وحدة الموضوع أساسا في بنائهم الشعري لتختفي عناصر القصيدة المركبة، ذلك أننا لا نجد أثرا لمقدمات تمهيدية من غزل وبكاء وأطلال ووصف لرحيل أو استطراد إلى موضوع، بل نجد في مقطوعاتهم وأكثر قصائدهم وحدة موضوعية بحيث نستطيع أن نضع لكل مقطوعة عنوانا خاصا بها، دالا على موضوعها فـ «الطلل تقليد جاهلي، يبدو فيه المكان ممزقا ومندثرا، يبكي فيخ الشاعر مستعيدا ذكرياته، بيْد أن عالم الصعاليك جديد يتطلع نحو المستقبل، لا تربطه بالماضي رابطة»[33]، وهذا ما وقفنا عليه في مطلع لامية الشنفرى سابقا.

ب- شعر المقطوعات: حين ننظر إلى شعر الصعاليك من ناحية بنائه الخارجي يلفت أنظارنا أنه شعر مقطوعاتٍ لا قصائد، حيث نجد جلَّ قصائد الصعاليك عبارة عن مقطوعات باستثناء بعض القصائد كتائية الشنفرى، ولعل مرد ذلك إلى أنهم ذوو خفة وسرعة وإختلاس لم يألفوا التمهل والتروي والتنميق، فجاء شعرهم صورة لحياتهم، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ بالفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده، فإذا وقفنا على ديوان **عروة بن الورد** مثلا نجده يتشكل «من اثنين وأربعين نصا مجموع أبياتها مئتان وأربعون أي بمعدل 05.71 بيتا للنص الواحد، وهو أمر طبيعي في شعر الصعاليك إذ أنّ أغلبه مقطوعات، ففي الديوان ثلاثة عشر نصا فاقت السبع أبيات لكل منها، مما يستوجب تسميتها قصيدة، أما السبعة وعشرون الباقية فهي مقطوعات».[34]

ولعل انفراد الخطاب الشعري عند الصعاليك بهذه المزايا والخصائص له ما يبرره؛ ذلك أنهم كانوا يتجهون إلى الموضوعات التي تعبر عن طموحاتهم وتنسجم مع هواجسهم الشعرية، فالشاعر الصعلوك يقف على القضايا الاجتماعية التي خرج لأجلها،

---

[33]- عودة الخطاب الشعري لدى صعاليك قبل الإسلام: محمد الصادق بروان، مجلة الخطاب، ص: 172.

[34]- الصوت والدلالة في شعر الصعاليك (تائية الشنفرى أنموذجا): عادل محلو، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، (مخطوط)، ص:47.

من تصوير الفقر وكيفية تجاوزه بالكرم والتكافل، وسرد ليومياتهم، ووصف لرحلاتهم في الصحراء... فشعرهم هو صدى لواقع حياتهم، لا لواقع قبيلتهم وهذا يوقفنا عند خاصية أخرى وهي التحلّل من الشخصية القبلية.

جـ- التحلّل من الشخصية القبلية: من الطبيعي أن لا تظهر الشخصية القبيلة في الخطاب الصعلوكي، بعد أن فقد الشاعر إحساسه بالعصبية القبلية، وأن يصبح شعره صورة صادقة عن حياته، يصور نفسيته وأعماله اليومية، ويسجل صحيفة أحواله الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره، وأن يصبح ضمير الفرد (أنا) أداة التعبير فيه بدل ضمير الجماعة (نحن) الذي عهدناه أداة التعبير في الشعر القبلي، ومثال ذلك قول **السُليك**[35]:

يُكَذِّبني العمرانِ: عَمرُو بنُ جَندَبٍ وَعَمرُو بنِ سَعدٍ وَالمُكَـذِّبُ أَكـذَبُ
سَعَيتُ لَعَمري سَعيَ غَير مُعجَـزٍ وَلا نأنـأ لَـو أَنّنـي لا أكـذِب
ثكلتكمَا إن لم أكن قـد رأيتهمَـا كراديس يهديه إلى الحـي موكـبُ

تظهر من خلال هذه الأبيات النزعة الذاتية طاغية بجلاء من خلال الضمائر الدالة على الفرد، ويمكن القول أن هذه السمة تنسحب على جلّ شعر الصعاليك، لأنه إن ظهر جانب "جماعي" في شخصية الصعلوك وشعره، وترتب عليه ظهور (نحن) من حين إلى حين، كان تعبيراً عن أفراد جماعة الصعاليك فمادة شعرهم «ليست مشتقة من شخصيات قبائلهم، ولكنها مشتقة من شخصياتهم الفردية وما تقيض به من ثورة على المجتمع القبلي وتمرد عليه وتحد له»[36]

حتى أن الزمن تحوّل عند الشعراء الصعاليك إلى زمن فردي متجه نحو المستقبل هاربا من الزمن الجماعي- المتجه إلى الماضي-، خارجا عن الأمور الأساسية له وأولها رمز الأطلال، إن الشاعر الصعلوك لم يعد يعرف الرمز بعد أن غدا يؤسس للفعل

---

[35]- ديوان السليك بن السلكة، شرح وتقديم: سعد الضناوي، ص: 62.

[36]- دراسات في الشعر الجاهلي: يوسف خليف، ص: 188.

الإنساني باعتباره الخالق المبدع الذي يندفع في العالم لنيل الرزق بالفعل البطولي[37]، إذا أصبحت عنده الأماكن متساوية طالما حققت لهم المآرب والأغراض، والأزمان تطلعت إلى المستقبل طالما لا تربطه بالماضي رابطة، يقول أحد شعرائهم:

ففي الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أَوْطَنْتُ كبلادي

فالتجربة الصعلوكية تعدّ صوتا آخر يحاول أن يثبت وجوده في مقابل سطوة الأنا الجماعية، بعد أن احتكر سادة العشائر مواضيع الخطاب الشعري الجاهلي باعتبارهم شخصيات محورية ومرموقة تدور حولها القصائد الشعرية مدحاً، وفخرا، ورثاء...

د- القصصية: تختلف القصيدة الصعلوكية عن بقية الشعر الجاهلي فنيا ليس على مستوى الهيكل فحسب بل على مستوى اللغة والأسلوب والمعجم، فشعرهم يغلب عليه مظاهر القصصية التي تتناسب مع سرد اليوميات الصعلوكية، حيث أنّ الشاعر الصعلوك يسجل كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي، فحوادث مغامراتهم وأخبار فرارهم وأحاديث تشردهم في أرجاء الصحراء وتربصهم فوق المَرَاقِب في انتظار ضحاياهم، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي.

هـ- عدم الحرص على التصريع: التصريع تقليد فني يُسهم في بناء جمالية النص الشعري لم يلتزمه الصعاليك إلا في القليل النادر، فالطابع الغالب عليه خلوه من هذه السمة البارزة في شعر غيرهم، بينهما عندهم لا نجد إلا نسبة قليلة مصرعة، أما الكثرة الغالبة فلا تصريع فيها[38]. إذن فأكثرية شعر الصعاليك غير مصرع على خلاف أكثرية شعر غيرهم في تلك الفترة، وبهذا يكون الشعراء الصعاليك قد رفضوا التقاليد الفنية على غرار رفضهم للعادات الاجتماعية؛ فتلك الثورة التي كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاعهم الاجتماعية، وتلك الحرية التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت ترفض الخضوع

---

[37]- ينظر الرؤى المقنعة: كمال أبو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص: 582.

[38] - ينظر شعر الصعاليك (منهجه وخصائصه): عبد الحليم حفني، ص:401.

لتقاليد مجتمعهم ظهرت أثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية، فكان شعرهم ثائرا على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي حرّاً في أوضاعه الفنية[39].

وفي الختام يبدو مصطلح التمرّد في ظاهره شيئا سلبيا رغم أنه في الحقيقة يتصف بالايجابية العميقة، لكشفه عن عناصر كامنة في الإنسان تتطلب الدفاع عنها والحفاظ عليها فرغبة الشعراء الصعاليك في تحقيق صورة العدالة الاجتماعية، ومحو الفوارق الطبقية هو الدافع الأساس في تصوير الصراع بين الفقراء والأغنياء، وبين الأحرار والأرقاء عبر لون شعري جسّد أفكارهم وأبرز مظالمهم بعد انفصالهم عن جسدهم (القبيلة) مفضلين الخروج إلى الفيافي والقفار بحثا عن مجتمع بديل عادل، فمهما كان في شعر الصعاليك نوع من التمرد على الأعراف الفنية، وعلى الأطر الفكرية التي إرتسمت على منوالها معالم القصيدة العربية منذ عهدها الأول إلا أن إبداعهم الشعري جاء متناسبا مع رسالتهم في الحياة .

[39]– ينظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: يوسف خليف، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط3، القاهرة، ص: 274– 276.